مبحث فى سلامة العربية

الجدال في الاستعمال

أيُّهما الصحيح أ « عيّره بأمرٍ » أم « عيّره إياه » ؟

جرى جدال فى الزمن القديم والزمن الحديث فى استعمال الفعل « عَيَّره تعييراً » على وزن « فَعَّلَهُ تفعيلاً » أيُعدّى الى الاسم الثانى بنفسه « عيّره أمراً » أم بالباء « عَيَّره بالأمر » ؟ وقد رأيت فى الجزء الثانية والثمانية من مجلة الشرق الأدنى (ص ٤) نقاشاً جرى حول استعمال الفعل المذكور ، وهذا موضع القصد منه .

قال الشيخ جلال الدين الحنفي يخاطب أصحاب المجلة :

« لا حظت فى العدد ١٠٦ من مجلّة الشرق الأدنى على الصفحة ١٤ أنكم اعتبرتم التعبير بالعبارة التالية (عيّرته بالكذب) ركيكاً . والمعروف من النصوص الفصيحة القديمة أنه تعبير شائع مألوف ، وما استشهدتموه من الشعر لا يعتبر حجّة ؛ لأنّ النصّ على شيء ليس دليلاً على بُطلان خلافه ، مع العلم أن الاستعمال البياني يجيز حذف حروف الجرّ عند دخولها على الجمل المسبوقة بأن . ومن الشعر الذي أحتج به لجواز تعدي التعيير[1] بالباء ، قول الشاعر القديم :

يُعيّرني بالدَّين قومي وإنّما تداينت فى أشياء تكسبهم حمدا » .

فقال محرّر المجلّة :

« النصّ على شيء ليس دليلاً على بطلان خلافه ، كما تفضل القارىء الكريم ، ولهذا لم نقل إن التعبير (عيّرته بالكذب) خطأ ، بل قلنا إنه ركيك ، وقولنا إنه ركيك يعني ضمناً أنه جائز جوازاً ضعيفاً ، ومع ذلك فبشأن البيت الذي يرويه القارىء الكريم جاء فى كتاب « درّة الغواص في أوهام الخواص » لابن الحريريّ « ولم يسمع فى كلام بليغ ولا شعر فصيح تعدية (عيّرته) بالباء ، فأما من روى بيت المقنع الكندي :

يعيّرني بالدين قومي ، وإنّما تدينت فى أشياء تكسبهم حمدا

---

(١) في الأصل المطبوع في المجلة « لجواز تعديه التعبير بالباء » ، وفيه تصحيف مطبعي ظاهر .

فهو تحريف من الراوي فى الرواية ، والرواية الصحيحة « يعاتبني فى الدين قومي » اهـ .

قلت : من أقدم مَن نَبَّهَ على تعدية « عيّره » الى مفعوله الثاني بنفسه ، الجوهري فى صحاحه ، وهو من أهل القرن الرابع للهجرة ، قال : « وعيّره كذا من التعيير ، والعامة تقول : عيّره بكذا ، قال النابغة :

وعيّرني بنو ذبيان رهبته وهل عليَّ بأن أخشاك من عار ؟!

وأورد الجوهري فى « حظل » من صحاحه قول الشاعر :

تعيّرني الحِظلان[1] أمُّ مغلّس فقلت لها : لمْ تقذفيني بدائيا[2]

وذكر فى « حلّ » قول الراعي :

وعيّرني الإبلَ الحلالَ ، ولم يكن ليجعلها لابن الخبيثة حالُهْ

ونقل المبرد فى كامله قول هدبة بن خشرم فى عصر معاوية بن أبي سفيان :

عمدتُ لأمر لا يعيّرُ والدي خزايته ولا يسبُّ به قبري[3]

ونقل ابن أبي الحديد فى شرح نهج البلاغة (١/٣٠٥) قول بعض الخوارج :

تعيّرني بالحرب عرسي ، وما درت بأني لها فى كل ما أمرت ضدُّ

وقال ابن قتيبة فى « باب ما لا يُعدّى والعامة تعدّيه ، وما يعدّى بحرف والعامة لا تعديه » :

« وتقول عيّرتني كذا ، ولا يقال عيّرتني بكذا . قال النابغة :

وعيّرني بنو ذبيان رهبته وهل عليَّ بأن أخشاك من عار ؟!

وقال المتلمس :

تعيّرني أمّي رجال ، ولَنْ ترى أخا كرم إلا بأن يتكرّما

وقالت ليلى الأخيليّة :

أعيّرتني داء بأمّك مثله وأيُّ حَصان لا يُقال لها « هلا » ؟[4]

---

(١) الحظلان (بكسر الحاء) : الاسم من الحظل ، وهو المنع من التصرف والحركة ، والميل الى التقتير على الأهل في النفقة .

(٢) في أمالي الشريف المرتضى « ٣/٦٧ » .

تعيرني الحظلان أم محلم فقلت لها : لم تقذفيني بدائيا

(٣) الكامل « ٣/٢٩٧ » طبعة المطبعة الأزهرية .

(٤) أدب الكاتب « ص ٣١٠–٣١١ » من طبعة المطبعة السلفية بمصر .

ونقل ابن أبي الحديد أيضاً فى شرحه (٢/١٠) قول حسان بن ثابت :

ومن بعد ذاك المال أنصاف دورنا وكنا أناساً لا نعيّر بالبخل

قال أبن الخشاب فى رسالته التي أنتقد بها مقامات الحريري مستشهداً على مخالفة العُلماء لما يقررونه فى كتبهم أحياناً : « هذا ابن قتيبة ينهى فى أدب الكاتب عن قولك : عيّرته بكذا . وقال : صوابه : عيّرته كذا ، بلا باء ، وقال فى خطبة الكتاب : « وكانت قريش تعيّر بأكل السخينة » ، وكذا أبن دُريد نهى عن هذا الاستعمال فاستعمله فى كتابه » [1] .

وقال الحريري فى الدرّة : « ويدخلون الباء على مفعول عيّر ، فيقولون عيّرته بالكذب . ولم يسمع فى كلام بليغ ولا شعر فصيح تعدية عيّرته [بالباء] ، وقول الكندي :

تعيّرني بالدين قومي وانّما تدينت فى أشياء تكسبهم حمدا

تحريف من الراوي ، والرواية الصحيحة : يعاتبني بالدين قومي . فالوجه كما قال أبو ذؤيب :

وعيّرها الواشون أني أحبُّها وتلك شكاة ظاهر عنك عارُها

قال مؤلف كشف الطرّة بعد ايراده ذلك والزيادة فى إيضاحه : « وتعقب ذلك ابن برّي فقال : قد جاء تعدية عيّر بالباء فى كلام الفصحاء ، كقول عديّ بن زيد :

أيُّها الشامت المعيّر بالدهـ . . . ـر أأنت المبرّأ الموفور [2] ؟

وقال أيضاً :

أيُّها الشامت المعيّر بالشيـ . . . ـب أطلت بالشباب افتخارا

وقال الصلتان لجرير :

أعيّرتنا بالبخل إن كان مالنـا لودّ أبوك الكلب لو كان ذا بخل

وبيت أبي ذؤيب ، لا شاهد فيه على تعدية « عيّر » بنفسه ، لاطراد حذف حرف الجرّ مع « أنْ وأنَّ » ، فينبغي الاستشهاد بقول حُمَيْد بن ثور :

أعيّرتنا ألبانَها ولحومَها ؟ وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

(١) استدراكات ابن الخشاب على مقامات الحريري وجواب ابن بري ، « ص ٤١ » بمطبعة الشركة الطبعية بالآستانة .

(٢) أورد هذا البيت أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة عدي من كتابه الأغاني « ٢/١٣٨ » من طبعة دار الكتب المصرية .

مع أبيات أخر . ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد ، واذا اتسع الخاتم سقط . وذكر الإمام المرزوقي أنّ كلا الأمرين جائزان .

وفي شرح البخاري : « عيّرته نسبته الى العار وعبته ، يقال عيّرته كذا وبكذا »[1] .

وقال الفيومي في المصباح المنير : « وعيّرته كذا ، وعيّرته به : قبحته عليه ونسبته اليه ، يتعدى بنفسه وبالباء » .

قال المرزوقي فى شرح الحماسة : « والمختار أن يتعدى بنفسه ، قال الشاعر :

أعيّرتنا ألبانها ولحومها ؟ وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

يقول : عيّرتنا كثرة الابل واللبن ، وليس ذلك للتجارة ، بل للضيوف ، وذلك عار لا يُستحيا منه » .

ونقل الأصفهاني فى الأغانى « ١٠٢/١ » من طبعة دار الكتب المصرية قول عمر بن أبي ربيعة :

أيها الكاشح المعيّر بالصر م ، ترحزحْ ، فما لها الهجرانُ

وهذه الشواهد التي نقلناها والنصوص اللغوية التي أثبتناها كافية فى إظهار « عيّره » متعدياً الى مفعوليه بحرف الجر وبنفسه معا فى الشعر ، فأين شواهد النثر ؟ إن الذين ادّعوا أن الفصيح أو المختار أو الصحيح أن يتعدى « عيّر » بنفسه لا بحرف الجر « الباء » لم يأتوا إلا بشواهد شعرية ، وقد زدنا نحن فيها ، ولكن ليت شعري أكان النابغة يستطيع أن يقول « وعيّرتني بنو ذبيان برهبته » ؟ لا ، لم يكن يستطيع ، لأن البيت يكون به مكسوراً . وكذلك القولُ فى جميع الشواهد الشعرية الأخرى ، فان ادخال الباء يكسرها فلا يطرد وزنها ، فكيف إذن يقال إنّ الفصيح أن يتعدّى بنفسه ، مع أن الشاهد لا يمكن أن يأتي فيه التعدي بالباء حفاظاً على الوزن ؟

وما قيل فى أبيات التعدي بالفعل وحده يُقَلْ فى بيتي التعدي بالباء ، أفكان عدي يستطيع أن يقول « المعيّر الدهر » و « المعيّر الشيب » ؟ لا ، لم يكن يستطيع ذلك ، فلعلّه كان مضطراً الى إدخال الباء من أجل صحة الوزن ، فينبغي الاستشهاد فى مثل هذه العبارة بالنثر دون الشعر

(١) كشف الطرة عن الغرة على الدرة ، للسيد العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي « ١٢٤ ـ ٦ » .

أولاً ، فاذا توفرت شواهد النثر أمكن تأييدها بالشعر ، إلا أننا لم نر من استشهد بشاهد نثري .

قال الحريري : « لم يسمع في كلام بليغ تعدية عيرته بالباء » . وليته أتى بكلام بليغ تعدى فيه بنفسه ، وكيف يقال هذا وقد جاء في نهج البلاغة من الكلام الذي لا يشك في نسبته الى الامام علي بن أبي طالب قوله : « ولا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم ... إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر والهراوة (فيعيّر بها وعقبه من بعده) »[1] ؟ ألا ترى أنه عدي « يعيّر » بالباء ، لا بنفسه على خلاف ما ادّعى القوم ؟

وقال الواقدي في أخبار غزاة بدر عن معاذ بن رفاعة بن رافع عن أبيه ، قال : « إنْ كنا لنسمع لإبليس يومئذ خواراً ودعاء بالثبور والويل ، وتصوّر في صورة سراقة بن جشم حتى هرب فاقتحم البحر ورفع يديه ماداً لهما يقول : يا رب ما وعدتني . ولقد كانت قريش بعد ذلك (تعيّر سراقة بما صنع يومئذ) فيقول : والله ما صنعت شيئاً »[2] . فهذا رافع السحابي قد عدي « عيّر » الى مفعوله الثاني بالباء كما فعل الامام علي بن أبي طالب . أو ليس هذا دليلاً على أنّ النثر لم يعترف بما أسند الى الشعر من كونه ذا التعبير المختار ؟

وروى أبو مخنف لوط بن يحيى الأخباري المشهور في أخبار ما قبل حرب الجمل : « فقال ابن الزبير : أتعيّر الزبير بالجبن ؟ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك . قال ابن عباس : والله إني لا أعلم إلا أنه فرّ وما كرّ وحارب فما صبر ... »[3] . وهذا عبد الله بن الزبير يعدي « تعيّر » مضارع « عيّرتَ » بالباء ، ولا يعرف غير ذلك .

ونقل أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل تعاتب الخليفة عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وقد جاء في قول عثمان : « وأما صبرك يوم أحد وفراري ، فلقد كان ذلك ، فأنزل الله تعالى العفو عني في كتابه ، فعيّرتني بذنب غفره الله لي ، ونسيت من ذنوبك ما لا تدري أغفر لك أم لم

(١) شرح نهج البلاغة « ٣/٤١٧ ـ ٨ » ومن الكلام المنسوب اليه الوارد في نهج البلاغة أيضاً « ٢/٤١٢ » : « فكيف بالغائب الذي غاب أخاه (وعيره ببلواه) ؟ أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه ؟ » . وجميع هذه الشواهد وما بعدها منقولة من « معجمي المستدرك » .

(٢) شرح نهج البلاغة « ٣/٣٤٤ » . (٣) الشرح المذكور « ٣/٥٠٢ » .

يغفر [١] » . وهذا شاهد قوي أيضاً من كلام الخليفة عثمان بن عفان ، لا يحتاج الى فضل بيان .

وروى نصر بن مزاحم المنقري فى أخبار صفين ، قال فى فرار عمرو بن العاص : « فقال عبد الرحمن (بن حسان) يعيّره بفراره من عليّ يوم صفين »[٢] .

ونقل ابن أبي الحديد مما يروى عن الزبير بن بكار « لما اجتمع جمهور الناس لأبي بكر ، أكرمت قريش معن بن عديّ وعويم بن ساعدة ، وكان لهما فضل قديم فى الإسلام ، فاجتمعت الأنصار لهما فى مجلس ودعوهما . فلما حضرا ، أقبلت الأنصار عليهما ، فعيّروهما بانطلاقهما الى المهاجرين ، وأكبروا فعلهما فى ذلك »[٣] .

وهجا عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبي عبد الله بن الزبير بأبيات ، منها قوله :

فما لي حين أقطع ذات عرق[٤] الى ابن الكاهلية[٥] من معاد

ولما بلغ الشعر ابن الزبير ، قال : « علم أنها شرٌّ أمهاتي ، فعيّرني بها ، وهي خير عمّاته »[٦] . ولم يقل « فعيّرني إيّاها » على ما ادّعى أهل المعرفة بالفصيح والمختار والصحيح . هذا وإنّ المتولين لتصحيح الأغاني ، لم يعلقوا شيئاً على قوله « فعيّرني » سهواً أو قصداً ، لأنهم لم يروا فيه حاجة الى ذلك .

ونقل عن ابن الكلبي فى ترجمة أبي قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط أنه قال يفتخر بنسبه :

فعُدّدْ مثلهن أبا ذباب ليعلم ما تقول ذوو العقول

فما الزرقاء لي أمّاً فأخزى ولا لي فى الأزارق من سبيل

قال : « يعني بأبي الذباب عبد الملك ، والزرقاء إحدى أمهاته من كندة وكان يعيّر بها »[٧] .

والقارىء يرى من تتابع هذه الشواهد أنّ « عيّره أمراً » غير معروف فى كلام العرب المنثور ،

(١) الشرح المقدم ذكره « ١/٦٦ » .
(٢) الشرح المذكور « ١/١٩٤ » . (٣) الشرح المقدم « ٢/١٠ » .
(٤) ذات عرق : منهل أهل العراق في الحج وهي الحد بين نجد وتهامة « معجم البلدان » .
(٥) الكاهلية : زهراء بنت خثراء من بني كاهل بن أسد ، وهي أم خويلد بن أسد بن عبد العزى .
(٦) الأغاني « ١/١٦ » من طبعة دار الكتب المصرية .
(٧) الأغاني « ١/٣٤ » .

وأن الذي ادّعى صحته أستنبطه من الشعر فأخطأ ، وهذه العبارة مرّت من بين أيدي المصححين للأغاني بلا تعليق أيضاً .

ثم نقل أبو الفرج مما يتصل روايته بأبي عبد الله المسيبي وأبي الحسن المدائني أنّ الحزين قال شعراً في سواد ثنيتي عمر ، وهذا نص قولهما : « فقال الحزين الكناني يعيّره بذلك ، وكان عدوّه ، وقد بلغه خبره » (١) .

وجاء في موضع آخر من الأغاني ما هذا نصه : « أخبرنا الحسن بن علي ، قال : حدثنا أحمد بن الحارث الخراز عن المدائني ، قال : كان عمر [illegible] الأسدي مبخّلاً ، ووجده أبوه مع أمةٍ له فكان يعيّر بذلك » (٢) . وورد في أخبار بني عامر وبني عبس وتعييرهم بعضهم بعضاً بانتهاب النساء وأخذهن ، قال في رواية عن الأعرابي : « فقال عروة بن الورد يعيّرهم بأخذه ليلى بنت شفواء الهلالية » . وها هنا انتبه مصححو الأغاني ، فقالوا : « أنكر صاحب القاموس (٣) استعمال عيّر متعدياً بالباء ، وقال : وعيّره الأمر ، ولا تقل : بالأمر . وقال صاحب اللسان : والعامة تقول : عيّره بكذا . ولكن المرزوقي في شرح الحماسة صرّح بأنه يتعدى بالباء . قال : والمختار تعديته بنفسه . أنظر شرح القاموس للسيد مرتضى » اهـ .

ولا شك في أنّ صاحب القاموس قلّد غيره من دون استقراء للكلام العربي ففيه القول الفصل في مثل هـــذه القضية اللغوية التعبيرية ، أما السيد مرتضى فالظاهر لنا أنه أخذ ما في المصباح المنير ، وأما صاحب اللسان فهو ناقل وقد نقل ما في صحاح الجوهري فليس القول قوله إذن .

ونقل صاحب الأغاني في أخبار بشار بن بُرد أنه كان يُعاب عليه شعره الذي قاله في حداثته ، فقرأ بعض من يريد أذاه شعراً من ذلك الشعر ، « فغضب وصاح : من الذي يقرّعنا بأشياء كنا نعبث بها في الحداثة فهو يعيّرنا بها ؟ » (٤) . فهذا بشار من فصحاء الشعراء لم يلتزم استعمال

---

(١) المرجع المذكور « ص ٢٣١ » . (٢) الأغاني أيضاً « ٢/٤١٤ » .

(٣) نقلنا آنفاً أن ابن قتيبة من أهل القرن الثالث للهجرة أنكر ذلك ، وبينه وبين صاحب القاموس زهاء خمسة قرون ونصف .

(٤) الأغاني « ٣/١٨٠ » .

« عيّره الشيء » ، ولعلّه كان ينكره في النثر لأنه من لغة الشعر .

ونقل الشريف المرتضى في أماليه ، قال : « وروى ابن شبة عن أبي عبيدة ، قال : كان حماد مجرد يعيّر بشاراً بالقبح ، لأنه كان عظيم الجسد مجدوراً طويلاً جاحظ العينين قد تغشاها لحم أحمر »[1] . فابن شبة وهو من قدماء الأخباريين لم يستعمل « يعيّر بشاراً القبح » ، فان سلمنا أنه التزم نص المروي كان ذلك أدل وأدعى الى القبول لتقدم زمانه .

وقال أبو هلال العسكري في الكلام على المثل « طمح مرقة » أو « طاع مرقة » بعد سطور : « فعيّرت فزارة بأكل الجردان ، فقال الكميت بن ثعلبة ... »[2] . ولم يقل « فعيّرت أكل الجردان » .

وجاء في الأغاني في أخبار عمرو بن كلثوم أنه لما حضرته الوفاة جمع بنيه فقال : « يا بنيّ ، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي ، ولابد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت . وإني والله ما عيّرتُ أحداً بشيء إلا عيّرتُ بمثله ، إن كان حقاً فحقاً وان كان باطلاً فباطلاً ... »[3] . فها هنا يقال المثل « قطعت جهيزة قول كل خطيب » ، وليس لأحد أن يقول : في الكلام تصحيف أو تحريف ، وقد جاء على الفرار من غير اضطرار ولا استكراه ، وأيده التكرار .

وقال أبو حيان التوحيدي وهو من فصحاء الكتاب ناقلاً لكلام يوناني مترجم ، « قال أوميروس : لا ينبغي لك أن تؤثر علم شيء ، إذا عيّرت به غضبت ، فانك إذا فعلت هذا ، كنت أنت القاذف لنفسك »[4] . وهذا المبرد ممن عاش قبله بأكثر من مئة سنة يقول في أخبار خالد ابن عبد الله القسريّ حين خرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة في عشرين رجلاً فعطمطوا به[5] : « فقال خالد : أطعموني ماء ، وهو على المنبر ، فعيّر بذلك »[6] .

ولم يكن هذا تصحيفاً ، فقد كرّر الأديب الكبير التعبير في خبر آخر أضرب فيه معبد بن

(١) أمالي المرتضى « ١/٩٣ » .
(٢) جمهرة الأمثال « ص ١٣٥ » من طبعة الهند .
(٣) الأغاني « ١١/٥٩ » . (٤) الامتاع والمؤانسة « ٢/٣٤ » .
(٥) عطمطموا به : أجلبوا عليه وتابعوا أصواتهم في الحرب ، والمصدر العطمطة .
(٦) الكامل « ١/٢٥ » من طبعة المطبعة الأزهرية .

زوارة عن الطعام والشراب حتى مات ، قال : « فقال جرير يعيّر الفرزدق وقومه بذلك »[١] .

وهكذا نجد « عيّره بكذا » مطرد الاستعمال ، على كلّ حال ، منذ عصر عمرو بن كلثوم حتى عصر الكتاب المتأخرين كالذي ترى من قول ابن أبي الحديد « وأما قوله — ع — للأشعث : حائك بن حائك ، فان أهل اليمن يعيّرون بالحياكة ، وليس هذا مما يخصّ الأشعث »[٢] . وكما نقل عن الزبير بن بكار الزبيري في خبر من قوله « فعيّرهم خالد بن يزيد به »[٣] .

ولا نجد « عيّره إياه » إلا في الشعر ، وفي دعوى ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » ، مع مخالفته في المقدمة لما أراد وما دعا إلى استعماله . وقد أثبتت الشواهد أن العرب والكتاب لم يكونوا يستعملون في نثرهم إلا « عيّره به » حتى لقد فسّر بعضهم « عيّره كذا » بعيّره بكذا ، إشارة منه الى أنه هو الأصل ، وأن الذي ورد في الشعر فرع عليه ، فقد نقل الشريف المرتضى البيت الذي قدمنا ذكره آنفاً ، وهو :

تُعيرني الحِظلان أمُّ محلّمٍ ... فقلت لها : لم تقذفيني بدائيا[٤]

مع بيتين آخرين . وقال : « الحِظلان : المسكون البخلاء ، والحظل الامساك ، وأم محلّم امرأته ، ومعنى قوله (تعيّرني الحظلان أي بالحظلان) ... »[٥] ، وبهذا علم أن الأصل عند الشريف المرتضى هو التعدّي بالباء ، وأن حذف الباء من باية الشعر وأسلوبه ، وهو الرأي الذي نرتضيه ونسكن إليه ، فقد دلّ عليه السماع قبل القياس .

« عيّره به » من حيث القواعد العامة

قدمنا من شواهد السماع المنثورة ما أثبتنا به أنّ « عيّره به » هو الأصل في كلام العرب ، وأنّ « عيّره إياه » من لغة الشعر ، وأن الفصحاء لم يستعملوه في كتاباتهم ولا في خطبهم ، مع

(١) الكامل « ٢/٦٩ » . (٢) شرح نهج البلاغة « ١/٩٩ » .
(٣) المرجع المذكور « ص ١١١ » .
(٤) وكنا قد نقلنا رواية المرتضى في احدى الحواشي السابقة .
(٥) أمالي المرتضى « ٤/٦٨ » . وبين التفسيرين بعض الخلاف . قال الجوهري : « ويقال رجل حظل وحظلل للمقتر الذي يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، والاسم الحظلان بكسر الحاء . قال الشاعر : تعيرني الحظلان ... » والمفهوم من كلام المرتضى أن الحظلان جمع .

ما ادّعاه له جماعة من اللغويين من كونه التعبير المختار أو الفصيح أو الصحيح ، ولكننا مع وضوح الحجة واستبانة المحجّة ، لا نكتفي فى هذا العصر بالسماع والرواية ، وانما ينبغي لنا أن نعرض كل ما يتناوله الجدال فى اللغة على قواعدها العامة ، فما يوافقها نُسجل بصحته سماعاً وقياساً ، وما لم يوافقها نحسبه مما خرج عن منطق القواعد التي أبانتها الدراسة حتى عصرنا ، وعلى هذا المذهب نقول :

قد نقلنا قول بعضهم إنّ « عيّره » معناه « نسبه الى العار » ، فالتفعيل هذا مشتق لنسبة المفعول الى ما اشتق منه الفعل ، والصاقه به مثل « كفره تكفيراً » من الكفر ، و « بخّله تبخيلاً » من البخل ، و « فسّقه تفسيقاً » من الفسق ، و « فجّره تفجيراً » من الفجور ، و « بدّعه تبديعاً » من البدعة ، و « زنّاد تزنية » من الزنا ، و « جبّنه تجبيناً » من الجبن ، وهو وزن خاص بالعيوب والمساويّ دون المحاسن . وقد اشتركت المحاسن والمساويّ فى « أفعله يفعله إفعالاً » أي وجده على صفة ما اشتق منه الفعل كأحمده أي وجده محموداً ، وأعظمه وجده عظيماً ، وأبخله ألفاه بخيلاً ، وأكفره وجده كافراً .

وبعد إيقاننا أن « عيّره » هو من هذا الضرب الذي أشرنا اليه أولاً ، علمنا أنه من الأفعال التي تنصب مفعولاً واحداً بأنفسها ولا تنصب مفعولين ، وتتعدى الى مفعولها الثاني بحرف الجر إن اقتضى الأمر . ولما كان حرف الجر الغالب الاستعمال مع هذا الوزن « الباء » التي للاستعانة ، أو السبب ، قلنا « فسّقه بفعله هذا تفسيقاً ، وبدّعه بقوله تبديعاً ، وكفّره بشعره تكفيراً ، وفجره بعمله تفجيراً ، وجبّنه بنكوصه تجبيناً ، وعيّره بكذبه تعييراً » فالباب مطرد ، والأمثلة متسقة .

هذا ، ومما ينبغي أن نذكره هنا فى القواعد العامة أن أخذ الفعل مفعولين ونصبه اياهما بنفسه ، هو نظري لا عمليّ ؛ لأنه لا يجوز فى منطق اللغة أن يقع الفعل على مفعولين حقيقيين فيشتركا فى تأثير الفاعل فيهما مع اختلاف حقائقهما ، وانما يتوصل إلى هذا بالعطف تقول « أكلت الخبز والادام » ، أو بالضمير نحو « أكلتهما » و « كلّمت القومَ ومن حولهم » و « كلّمتهم » ، ولم يجز هذا وأمثاله إلا لتوحد التأثير وتفرده وكونه غير متعدّد . أما الأفعال التي تنصب مفعولين بأنفسها ،

فليس لفاعلها تأثير متفرد متوحد يقع عليها معاً بالتساوي والاشتراك ، تقول « أطعمتُه جبناً ، وسقيته ماء ، وأعطيته درهماً ، وحرمته حقاً » فالأصل في هذه الأمثال « أطعمتُ له الجبن » فالاطعام واقع على الجبن ، و « سقيت له الماء » فالسَّقي واقع على الماء ، و « أعطيته الى درهم » أي أوصلته اليه و « حرمته من حقه » أي أقصيته عنه .

وبهذا الايضاح يعلم أن نصب المفعولين بنفس الفعل ما هو إلا أمر لفظيّ ، فينبغي أن نعرضَ « عبّر » على الأوزان التي تنصب مفعولين بأنفسها ، فهل هو منها ؟ فنقول : لاشك في أن الأفعال التي تنصب مفعولين على النحو الذي أشرنا اليه ، تكون إمّا ثلاثية فهي سماعيّة وليس « عبّر » منها ، وإما غير ثلاثية وهي المحتوية على أكثر من ثلاثة أحرف والغالب عليها القياس ، وذلك أن الفعل الثلاثي المتعدي بنفسه الى مفعوله يتعدى بنفسه الى مفعوليه إذا أدخلنا عليه همزة التعدية مثل « تبعه وأتبعه غيره » ، و« رآه وأراه غيره » ، و « وطئه وأوطأه إياه » ، و « زاره وأزاره إياه » ، و « ناله وأناله إياه » ، أو نقلناه الى وزن « الاستفعال » للطلب نحو « استغفر الله ذنبه ، واستدفعه الشرّ ، واستفهمه الأمر ، واستعلمه إياه ، واستشرحه الحادثة ، واستسقاه ماء ، واستطعمه طعاماً » وما إلى ذلك ، وبذلك لا نجد « فعّله تفعيلاً » في هذا الضرب من الأفعال ولا في ذاك ، وقد يجوز أن نجد في العربية ثلاثياً متعدياً إلى مفعول واحد ، فاذا نقلناه الى « فعّله تفعيلاً » تعدّى الى مفعولين بنفسه ، مثل « بلغه وبلّغه مراده تبليغاً » ، و« علم الشيء وعلّمه الشيءَ » ، ولكنه غير قياسيّ ، فهذا من الأفعال التي ناب فيها « فعّل » عن « أفعل » سواء أتعدّى الى مفعولين أم لم يتعد ، مثل « أطاره وطيّره » و « أبلغه وبلّغه » . ثم إنّ « عبّر » ليس له ثلاثي يخالف معناه في التعدية ، وذلك أنّ « عاره » مثل « عبّره » لا فرق بينهما إلا في كثرة الاستعمال . وعلى هذا لا يجوز أن يُعدّى « عبّره » إلى مفعوله الثاني بنفسه إلا في الشعر على طريقة الحذف والايصال ، مثل « جناه كمأة ، ووزنه بُراً ، وأهداه هدية » . وهذا من الاتساع في التعبير ، ويكثر في الشعر ، ولا يُعاب في النثر ، ومنه قول النابغة : « وعيّرتني بنو ذبيان رهبته » وسائر ما ورد من أمثال هذا الشاهد .

والآن قد ظهر للفهم المتأمل أنَّ المسائل اللغوية التي اعتورها الجدال والقيل والقال ، لا تحلُّ على النحو الذي يتصورُهُ هؤلاء الأفاضل من قال فلان وقال فلان ، مما لم يثبت فى الاستعمال ، ولا يقف بالاستدلال ، فاللغة اليوم يجب أن تجري على الأساليب العلمية والقواعد العامة المضبوطة المحكمة ، وتؤيد بشواهد كثيرة من كلام العرب ، النثر بالنثر والشعر بالشعر ، فتتحقق الفائدة للمستفيد ، ولا يقول القارئ مستقلاً ومستهيناً : « وأين تقعان مما أريد ؟ » .

مصطفى جواد